كوليت سلامة

مفهوم الحرية وتطوره في فكر سعادة

1- الحرية في فكر سعادة وعلاقتها بالتحرر والاستقلال

اهتم سعادة بالحرية، حيث إنه اعتبرها من ضروريات الحياة فهي كالهواء والماء والغذاء والخبز لا بل أسمى من الخبز: «الحرية حق طبيعي يشعر الإنسان بحاجته إليه كما يشعر بحاجته إلى الهواء والغذاء» «والأفضل الاهتمام بالحرية قبل الخبز لأن الحرية تؤمن الخبز أما الخبز فلا يؤمن الحرية.

ويتوسع سعادة في ملاحظة وجود الحرية، فلا يقصرها على الإنسان بل يجعلها مطلبا لكل كائن حي: «ألا ترى كيف يجول الأسد أو النمر المأسور في قفصه يطلب مخرجا ومجالا لحركته بعد أن ضاق ذرعا بأسره وعيل صبره؟ أو العصفور كيف يمد منقاره من هنا وهناك طالبا الإفلات من القفص الذي سجن فيه»..

فالحرية هي مطلب وغاية وهي متلازمة مع الحياة، وثمنها فادح ولكن الرضى بالذل والعبودية أشد فداحة والإنسان الذي يعيش في العبودية هو حي ميت لأن «الحرية هي الحياة» فإما أن نحيا أحرارا أو نموت أحرارا والأفضل طبعا أن نحيا بالحرية رغم أن دربها طويل وشاق ولا يسلكه إلا الأبطال:

> «... إذا كان لا بد من هلاكنا يجب أن نهلك كما يليق بالأحرار لا كما يليق بالعبيد (....) نحن نعني أننا لا نرضى إلا حياة الأحرار ولا نرضى إلا أخلاق الأحرار، قد تكون الحرية حملا ثقيلا ولكنه حمل لا يضطلع به إلا ذوو النفوس الكبيرة أما النفوس العاجزة فتنوء وترزح، تسقط غير مأسوف عليها تسقط محتضرة مهانة، مستسلمة في ذلها تسقط وقد قضت على نفسها قبل أن يقضي عليها غيرها.»

لقد اعتبر سعادة الحرية أسمى مطلب يمكن لإنسان أن يبتغيه في حياته لا بل في الحياة على الإطلاق. ثم لم يلبث أن ساوى الحرية بالحياة، حاثا الجميع على التضحية بكل غال ونفيس في سبيل نيل الحرية لأن المتقاعسين عن النهوض لنيل حريتهم خوفا على حياتهم فإنهم سيخسرون حريتهم وحياتهم معا. وهذا ما عناه عندما تحدث عن ثورة مراكش قائلا: «إن ثورة مراكش تقول للأمم المستعبدة إنهضي أيتها الأمم الغافلة فما في الاستكانة والاحتمال إلا الذل وحياة مرة حقيرة. إنهضي أيتها الأمم المستعبدة فما العبودية إلا قبر. أمواته أحياء. انهضي لأن الحرية هي الحياة ومن لا ينهض لنيل الحرية خوفا على حياته خسر الحرية والحياة معا». وانطلاقا من هذا المبدأ قرر سعادة أن يكون ورفقاءه، القدوة والمثال فأعلن دونما تردد أن القوميين قد نهضوا لنيل حريتهم غير خائفين على حياتهم الخاصة ولا على مصالحهم ولا على أي شيء عندهم لأن الحياة عندهم بلا حرية لا تساوي شيئا: «إننا نحن القوميين الاجتماعيين قد وضعنا في هذا الصراع كل سلامتنا: كل مصالحنا، كل شيء عندنا في الحياة لأننا لا نجد الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان إلا إذا كانت حياة حرية وعز، نحن نرى الحياة حرية وعزا ولذلك نحن مستعدون لأن نقدم حياتنا في كل ساعة وفي كل دقيقة من أجل الحرية والعز ليس فقط لمجموع الحزب القومي الاجتماعي، بل للأمة كلها، اللبنانيين وغير اللبنانيين». وفي مكان آخر يقول: «... فالذي يرفع السوريين هو عملهم كشعب عزيز يفدي الحرية بالنفس والمال».

لم يكتف سعادة بالسوريين المقيمين في سورية فحسب، بل وسع نداءه إلى السوريين في المغترب مطالبا إياهم ببذل دمائهم في سبيل حرية سورية حتى ولو كانوا في المهجر وفي هذا النداء يقول لهم إنهم: «أبناء سورية وسورية تطالبهم بشرفها وحقوقها المهضومة، إنها تطالبهم بدمها الذي يجري في عروقهم (...) يجب أن يعلموا أن دماءهم رهن لا يفك إلا بحرية سورية وسيادتها ورفعتها».

أما المفهوم الجديد الذي لم يسبقه إليه فيلسوف، فكان اعتبار «الحرية صراعا» من أجل التقدم نحو الأفضل للمجتمع بكامله وليس للأفراد لأن حرية الأفراد في رأيه حرية أنانية تخدم فقط الأفراد ويعلن بلا أدنى تردد: «نحن

لم نحارب ولا نحارب من أجل أن تكون لنا ولغيرنا حرية فوضوية تخدم ذوات الأفراد المرضى في نفوسهم، بل حاربنا ونحارب من أجل تحقيق قضية واضحة وإقامة نظام جديد».

وكل شعب يؤمن بالحرية وبحقوق الإنسان وبالقيم الأخلاقية له الحق المقدس بالاستقلال التام، وحرية الشعوب لا تقف عند حدود الاستقلال والوصول إلى إعلانه بل عندما تتحرر من المفاهيم الضيقة و«العقائد الباطلة» والممارسات الطائفية والعشائرية والعنصرية وهذا ما كان سعادة يؤكده دائما: «الحرية ليست حرية العدم بل حرية الوجود والوجود حركة هي حركة صراع، صراع العقائد في سبيل تحقيق مجتمع أفضل (...) ويل للعقائد الباطلة من الحرية». أما الاستقلال فهو الحرية التامة والمنعتقة من كافة القيود المادية، الفكرية، المعنوية والجغرافية. وفي سبيل الحصول عليه وعلى الحرية حث السوريين على الاتحاد فيما بينهم وتوحيد جميع قواهم وشحذها لنيل حريتهم: «ولابد للسوريين(...) أن يعملوا متحدين ويستخدموا لذللك جميع قواهم العقلية والجسدية والمادية وأن يكونوا مستعدين لأية تضحية كانت في هذا السبيل شأن كل أمة تريد الحرية والاستقلال». ويضيف: «يجب على السوريين إذا كانوا يطمحون إلى الاستقلال والحرية أن يتحدوا كالأمم الحية التي سبقتهم فيعتمدون على أفعالهم لا على أقوالهم وعلى اتحادهم لا منازعتهم وعلى أنفسهم لا على غيرهم لأن هذه هي الطريق الوحيدة إلى الحرية والاستقلال». وقد ركز سعادة على الوحدة الروحية أيضا وفي أكثر من مرة لأن هذه الوحدة تساهم في تدعيم الحرية والاستقلال بينما فقدانها يؤخر التقدم نحو مستقبل أفضل: «إن في أمتنا تقاليد متنافرة مستمدة من أنظمة مؤسساتنا الدينية والمذهبية كان لها أكبر تأثير في إضعاف وحدة الشعب الاجتماعية والاقتصادية وتأخير نهضتنا القومية الاجتماعية، مادامت هذه الحواجز التقليدية قائمة، تذهب دعواتنا إلى الحرية والاستقلال صيحات ألم وتأوهات عجز».

ويضيف: «من أعظم العقبات التي قامت في سبيل استقلال سورية، التعصب الديني، ذلك الداء العضال الذي أحدث شللا في أعضاء الأمة السورية ووقف حاجزا منيعا بينها وبين ما ترمي إليه من النهوض إلى مصاف الأمم الحية». وللحصول أيضا على الاستقلال التام لا بد للبلد الطامح للحصول عليه من أن يولي الاستقلال الاقتصادي والحرية الاقتصادية أهمية قصوى كي لا تخضعه رغيف خبز أو برميل نفط. يقول سعادة في هذا الصدد: «لا سبيل إلى الاستقلال السياسي قبل تحقيق الاستقلال الاقتصادي، وإن البلدان التي تنشد حريتها بكاملها واستقلالها الناجز يجب عليها أن تسعى إلى استقلالها الاقتصادي ومتى نالته جاز لها أن تسير في طريق الاستقلال السياسي». ولم يغفل سعادة عما للحدود الجغرافية من أهمية في تدعيم الاستقلال فأكد أن الحدود الجغرافية السورية هي خير صائن لاستقلالها ووحدتها معتبرا أن هذه الحدود تميزها عن غيرها من الأمم التي لا حدود واضحة لها ويقول: «... إن لسورية وضعا جغرافيا يميزها عن بقية الأقطار العربية. والحدود السورية هي حدود معروفة في علم التاريخ والجغرافية وهذه الحدود في حدود ثابتة أصلية تجعل سورية بلادا مستقلة، تمام الاستقلال عن أية بلاد أخرى».

والاستقلال لا يعطى بل يؤخذ بإرادة الشعب: «... وقد آن للشعب السوري أن يفقه بأن الاستقلال لا يأتيه عفوا بل يتوقف على مقدرة الشعب في تحرير نفسه ومقاومة من يريد له الاستعمار والاستعباد، فإذا كان للشعب مقدرة وقف في وجه الاستعماريين وقفة ثابتة بعزيمة لا تعرف الكلل وضحى في سبيل استقلاله بماله». وحتى سورية لا تنتظر من أحد أن يعطيها استقلالها بل تريد بنفسها أن تنتزع استقلالها من براثن الأجنبي: «إن سورية القومية الاجتماعية، لا تنتظر أن يحررها أحد، لأنها تعلم أنها إذا لم تحرر نفسها، وهي تحارب من أجل سيادتها وحقوقها فلا يحررها سلطان أجنبي». والاستقلال لا يستمر تلقائيا بل يحافظ عليه لأن فقدانه يعني فقدان الحرية والكرامة. والاستقلال الحقيقي هو الذي يحرر الأرض والإنسان في بعديه الوطني والروحي، من جهة ثانية سعى سعادة للوصول إلى بلد آخر حر مستقل بلد يحميه شعبه بدمه ويعرف كل مواطن فيه أن له الدور الفاعل: «كل سوري أينما كان وحيثما وجد مسؤول عن الذل الضارب أطنابه في بلاده والعبودية الواضحة نيرها على عنقه وأعناق مواطنيه لذلك يجب على كل سوري سواء أكان في الوطن أم في المهجر، أن يعمل لإنقاذ وطنه من الذل والعبودية».

والاستقلال في رأي سعادة «يقوم على قوتين وعلمين، فالقوتان هما قوة الرجال وقوة المال والعلمان هما علم السياسة وعلم الحرب» وليس «الاستقلال غاية بل واسطة لتحسين الحياة وترقيتها» وعملية الاستقلال ليست مجرد تحرير الأرض بل هي تحرير للفكر والإرادة «... إرادة مستقلة هي أساس كل استقلال» ويمكن أن يوجز الحديث عن الاستقلال في رأي سعادة هذا التعريف: «إن معنى الأمة والاستقلال القومي هو أن نكون أنا وأنتم مالكين أرضا، نعدها وحدة تامة، نقرر كيفية تصرفنا بها واستغلالها بملء حريتنا، بموجب الوحدة القومية التي سببها اتحادنا جميعا في حياة واحدة ، على أساس وحدة وطنية جغرافية».

ولم يكتف سعادة بكل هذه التعريفات والأقوال عن الحرية والاستقلال التي ليست سوى تمهيد للاعتراف بأن الاستقلال هو «غرض مقدس يرفعنا من مرتبة البهائم إلى مرتبة بشر أحرار»، بل اندفع إلى حد تزويج الاستقلال بالحرية زواجا روحيا وثيقا ثم جعلهما غرضين أسميين في حياة الأمم السامية ووسيلتين لا غنى عنهما لتحقيق جميع المطالب العليا» و«يجب علينا أن ننتهز جميع الفرص للحصول عليهما لأن بفضلهما نستطيع أن نكون أمة حية لها حقوقها في عالم الحياة وعليها فروضها وواجباتها نحو الإنسانية جمعاء».

أنواع الحرية عند سعادة وكيفية تطورها خلال مراحل حياته

من الواضح أن المراحل التي مرت بها حياة سعادة تنقسم إلى ثلاث مراحل: مرحلة الشباب (1904 - 1932) مرحلة تأسيس الحزب وإرساء قواعده (1932 - 1947) وأخيرا مرحلة الكفاح الثوري (1947 - 1949).

ولقد اعتمدنا هذا التقسيم لمراحل حياته الفكرية لعدة أسباب أهمها تطور المفاهيم الفكرية لديه خلال كل مرحلة من هذه المراحل، وارتباط هذا التطور بمفهومه للحرية.

ففي المرحلة الأولى كان سعادة يعي الحرية، ويمارسها كما يعيها، ومن ضمن إمكانيات الممارسة المتاحة له ولكنه لم يكن قد توصل إلى تحديد فلسفي لها.

ففي بداية عمله السياسي في المغترب انتسب إلى الماسونية وأسس جمعية ثم أسس حزبا... وكان هدفه من كل هذا حرية سورية. ولكن الشيء المشترك في كل هذا النشاط هو أن الحرية لم تكن بعد قد تحددت تحديدا فلسفيا دقيقا.

أما في المرحلة الثانية فقد وضع سعادة المبادئ التي أنشأ الحزب على أساسها، جاعلا غايته تطبيق المبادئ وإطلاق نهضة تؤدي إلى تحرير سورية. هذه المرحلة كانت مرحلة غنية بالتجارب وغنية بالصراع الفكري وخلالها أخذت أفكاره عن الحرية شكلها الدقيق والنهائي.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فقد ركز فيها سعادة على معظم مفاهيمه السابقة (المحاضرات العشر) وحاول تطبيقها على أرض الواقع مما جعله يصطدم بقوى كثيرة متضررة داخلية وخارجية، مما أدى إلى استشهاده.

فخلال تتبعنا لكتابات سعادة يتضح لنا أنه لم ينقطع عن التركيز على الحرية خلال كل مراحل حياته إلا أن نظرته إلى الحرية لم تكن هي، خلال كل هذه المراحل وباستطاعتنا مثلا أن نقسم حياته من حيث تطور الحرية في فكره إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وهي مرحلة الوعي القومي (1932-1904)، مرحلة تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وإرساء قواعده (1932 - 1947) والمرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة إعلان الثورة القومية الأولى (1947 - 1949).

المرحلة الأولى

منذ حداثته أظهر سعادة تمردا على المستعمرين وذلك بالأسلحة المتاحة له آنذاك، فحين كان يدرس في مدرسة الفرندز في برمانا سلمه أستاذه العلم التركي ليرفعه عند زيارة جمال باشا للمدرسة المذكورة، وعوضا عن رفعه رماه أرضا، رافضا بذلك أن يحمل علم بلاد تستعمر بلاده وتصادر حريتها وتضطهد أهلها.

ويتذكر السيد حبيب أبو حمد الذي كان زميلا له على مقاعد الدراسة، المدة التي قضياها معا في تلك المدرسة واحتكاكه بسعادة الفتى والاستماع لأقواله الرائعة فيقول إن كل ذلك جعله يتشرب روح الحرية ويثور على كل ما يراه مجحفا بحق الإنسان وحريته واستقلاله.

لقد عاش سعادة حداثته في وطن يمر بمآسي ونكبات كبيرة، فما كادت البلاد السورية تتحرر من ربقة النير العثماني الثقيل الذي جثم على صدرها أربعة قرون ونيفا، حتى وقعت ضحية استعمار جديد فرنسي - انكليزي، مرفق بوعد ليهود العالم بإنشاء كيان قومي لهم في الجزء الجنوبي من هذه البلاد أيضا. وخلال فترة الانتقال من نير إلى آخر عانت هذه البلاد من الويلات والجوع والبؤس والذل مالم تعانه اية بلاد أخرى قبلها.

ولم يكن سعادة الفتى غائبا عن كل ما حل ببلاده فقد كان رغم حداثة سنه، أكثر من عانى لأنه وعى باكرا خطورة ما كان يدبر لبلاده ولأنه تربى في بيت الدكتور خليل سعادة ذلك الوالد الطبيب المناضل سياسيا والمتميز بوضوح أهدافه القومية وصدق عزيمته.

وما كادت الحرب العالمية الأولى تلقي أوزارها حتى جلس ابن الأربعة عشر عاما يفكر ويحلل ويتساءل «ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟» وحصر كل همه وفكره وبحثه للإجابة عن هذا السؤال الفلسفي الكبير الذي لا يطرحه، عادة، الفتيان على أنفسهم.

وبعد بحث وتنقيب طويلين توصل إلى جواب عن سؤاله الذي لم يطرحه إلا ليجيب عليه. وكان الجواب: إن الذي جلب على شعبي هذا الويل هو فقدان الهوية القومية.

ولأن حرية أمته كانت شغله الشاغل لم ينقطع سعادة عن طرق جميع الأبواب المؤدية إليها. فعندما «أصبح شابا في الواحدة والعشرين من عمره مستكملا بذلك أحد الشروط المطلوبة للدخول في الماسونية» ولج بابها ظنا منه أن «مبادئها تنص على حرية الشعوب ومكافحة الظلم والطغيان أينما وجدا».

ثم ما لبث أن استقال من الماسونية لأنها قيدت عمل أعضائها الوطنيين». وقبل استقالته كان قد أسس سنة 1924 «جمعية الرابطة الوطنية السورية» ومن أهم أهدافها السعي من أجل تحرير سورية. ثم حلها لأسباب تنظيمية لا ضرورة لتفصيلها هنا. ثم أسس حزبا جديدا وأطلق عليه اسم «حزب الأحرار السوريين».

وكل هذه الأعمال تدل على سعيه الدائب لتحقيق حرية سورية.

لقد اعترضت حزبه هذا صعوبات جمة فقرر سعادة الشاب أن يعود إلى الوطن ويستأنف عمله الوطني في المكان المناسب وذلك بعدما جمد كل نشاطاته في المهجر. فحزم حقائبه عائدا إلى الوطن. وفور وصوله شرع بعملية اتصالات واسعة النطاق في أوساط المثقفين والمشتغلين في الأمور الوطنية. كل ذلك كان بهدف تأسيس حزبه الجديد الذي من أجله ترك مغتربة ويمم شطر الوطن. وبالفعل فقد رأى حزبه النور في 16 ت2 1932 وكان من أهم أهدافه تحرير أمته من ربقة الاستعمار وتوحيدها وبعث نهضة قومية جديدة فيها. وهكذا سعى سعادة لممارسة هذه الحرية من خلال فكرة تأسيس حزبه.

ويتضح جليا من خلال متابعتنا لكتابات وأعمال سعادة خلال هذه المرحلة أن فكرة تحرير سورية كانت الفكرة الطاغية على كل هذه الكتابات وكل هذه الأعمال حتى أن كل بحث أو عمل أخر قام به في تلك الفترة كان يندرج تحت خانة السعي لهذا التحرير والعمل لبلوغه والتفكير بأنجح الوسائل المؤدية إليه.

وقد برزت في فكره خلال تلك الحقبة ثلاث نقاط رئيسية توقف عندها مليا وصب اهتمامه عليها معتبرا أنها أكثر من ضرورية كي تنال الأمة السورية حريتها.

أما هذه النقاط فهي:

أولا: التصدي لمسألة فصل لبنان عن جسم الأمة السورية

ثانيا: الوحدة الروحية بين أبناء الأمة الواحدة.

ثالثا: مسألة تحرير المرأة السورية وإشراكها في النضال من أجل تحرير الأمة.

وسنتوقف عند كل من هذه النقاط مسلطين الضوء على آراء سعادة فيها.

1. فصل لبنان عن جسم الأمة

لقد وعى سعادة باكرا خطورة انفصال لبنان عن جسم الأمة السورية واعتبر أن هذا الانفصال الذي لا مبرر له إطلاقا يجعل حقوق اللبنانيين منحصرة في لبنان فقط ويسلبهم حريتهم في وطنهم السوري الكبير الممتد من «ترعة السويس حتى بر الأناضول، ومن البادية حتى البحر المتوسط، والذي يعتبر إذا ما تم توحيده دولة عظيمة ذات شأن وقوة ينظر إليها العالم بعين الاعتبار»، واستغرب سعادة انسياق اللبنانيين وراء هذه المطالب وتشبثهم بها دونما سبب وجيه يدعو إلى ذلك. فإذا كانت المذابح التي حدثت في القرن التاسع عشر هي التي أوحت لقادة الرأي في لبنان أن يطالبوا بالانفصال عن سورية فإنهم حسب سعادة مخطئون جدا لأن «الانقسام يزيد تلك النار استعارا ويزيد لهيبها اندلاعا من حيث يظنون أنهم يخمدونها» وقد صدق سعادة بقوله هذا إذ إن هذا الكيان اللبناني تعرض لمذابح طائفية بعد ثلاث وثلاثين سنة من توقعات سعادة ثم أعيدت الكرة بعد خمسين سنة من هذه التوقعات. ومن هنا يتضح أن سعادة قد رأى الويلات قبل حدوثها وحذر من حدوثها ووصف العلاج الناجع لتفاديها.

إلا أن «قادة الرأي» آنذاك قد عظمت لديهم مسألة الاستماع إلى فتى بعمر الواحد والعشرين، واستمروا في غيهم ظانين أنهم بمطالبتهم هذه سينقذون أبناء لبنان من المذابح الطائفية.

ومنذ ذلك التاريخ أي عام 1925 اتهم سعادة النواب اللبنانيين و«قادة الرأي» بأنهم «لا ينظرون إلا إلى كل ما يعود عليهم بالنفع الشخصي ولو أدى ذلك إلى هلاك اللبنانيين بأسرهم».

ويتساءل سعادة عمن يريد اللبنانيون «أن ينفصلوا وممن يريدون أن يتحرروا ولماذا يريدون أن يستقلوا عن سورية، هل هم شعب والسوريون شعب آخر لا يريدون أن يستعبدوا له أم ماذا؟ أليسوا هم والسوريون شعبا واحدا؟» ولا ينكر سعادة جدارة لبنان بالاستقلال. إلا أنه يرى أن سورية الطبيعية بما فيها لبنان هي الأجدر بهذا الاستقلال لأن شعبها كله شعب واحد وهي بلاد واحدة غير قابلة للتجزئة. وإن تجزئتها هي أكبر مصيبة على استقلالها وحريتها. فالحرية ليست تحرر لبنان من سورية بل هي تحرر سورية بكاملها من براثن الاستعمار والجهل والتخلف.

٢. الوحدة الروحية

لقد اعتبر سعادة الوحدة الروحية أمرا عالي الخطورة ذلك أنها تساهم مساهمة فعالة في تحرير سورية ونيلها استقلالها، وللوصول إلى هذه الوحدة اصطدم سعادة بعقبتين تسدان عليها الطريق: إنهما التعصب الديني واختلاف الأنظمة والقوانين الدينية. فالتعصب الديني يدخل في كل عمل تقوم به سورية حسب سعادة حتى أصبح هذا التعصب: «لازما لسورية لا غنى لها عنه وهي اليوم تدفع ثمنه غاليا لأنها لا تريد الاستغناء عنه وهو كالسرطان ينهش لحمها وينخر عظمها وهي تدفع ثمنه من مالها ودمها فعليها بالتآخي والاتحاد لأنه الأساس المتين الذي تبني عليه الأمم استقلالها».

ثم انتقد سعادة محاربة الأخ لأخيه، أي ابن أمته، باسم الدين واعتبر أن لا بد للسوريين من أن يعدلوا عن هذه الطريقة إذا كانوا راغبين في التخلص من سيطرة الأجانب وأن يعملوا متحدين وأن يضحوا بكل ما لديهم «شأن كل أمة تريد الحرية والاستقلال.»

وقد أصر سعادة على مبدأ فصل الدين عن الدولة، لأن الدين برأيه وجد لتطوير الحياة وتحسينها ولخدمة الشعوب وتحريرها. ولكنه إذا فقد معناه الروحي تحول إلى أداة لتحطيم الشعوب وقتل حريتها. يقول سعادة في هذا الصدد : «الحقيقة أن أولى منافع الدين كانت خدمة الشعوب وإنقاذ مطالبها العليا من التلف وإنعاش معنوياتها، وهكذا نرى أن الدين أعاد الأمل والإيمان إلى الشعب اليهودي وأخرجه من عبودية مصر إلى الحرية وهو الذي جعل الشعب السوري يتمسك بمبادئ السلام مع الحرية ويقدم خدمات كبيرة للإنسانية [..] بيد أنه إذا فقد الدين صفته الروحية وأمسى أداة مالية يستغلها أهله استغلالا في سبيل مصلحة سلطتهم على حساب حرية الشعب ومصالحه الحيوية تحول من نعمة منحت بها الشعور إلى نقمة شريرة تجلب عليها الكوارث وتكون سببا في انحطاطها فتضعف روحها القومية وتفقد ثقتها ويستولي عليها الخمول وتمسي مطايا للشعوب الأخرى التي تتمشى على المبادئ الشعبية، ذاهبة دائما إلى الأمام إلى التقدم والفلاح».

ولقد عارض سعادة دائما أن تكون لكل طائفة أنظمة وقوانين في الإرث والزواج والطلاق مختلفة عن تلك التي للطوائف الأخرى في الوطن الواحد معتبرا أن هذه الصورة ليست إلا فسيفساء حقوقية ومؤامرة على العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد بالإضافة إلى هذا فقد رأى سعادة أن هذه القوانين الطائفية المتضاربة تخلق عادة عقليات متضاربة تعرقل مسيرة الأمة نحو الوحدة القومية الصحيحة التي تؤدي إلى الاستقلال والحرية. ثم إنه يعيب على الأمة السورية إدخال عامل التعصب الديني في كل عمل تقدم عليه حتى إنها باتت عاجزة اليوم عن الاستغناء عن هذا التعصب رغم أنه «ينهش لحمها وينخر عظمها» ولا يرى سعادة حلا لهذه المعضلة المزمنة في سورية إلا التأخي والاتحاد والتعالي على العصبيات الدينية والإيمان بالوحدة القومية الحقيقية الكفيلة بصهر جميع المواطنين، رغم تعدد طوائفهم وتوجيههم نحو هدف سام واحد وهو مصلحة أمتهم.

٣. حرية المرأة

من الواضح أن سعادة يعتبر المرأة نصف المجتمع وأن أي مجتمع لن يبلغ حريته كاملة إذا كان نصفه مشلولا أو عاجزا أو معطلا بفعل معتقدات بالية وتقاليد مهترئة لا عمل لها سوى تأخير تحرير المجتمع وإبقائه في حضيض الذل والاستعباد فالمرأة بالنسبة لسعادة ليست جسدا فقط بل هي جسد وروح وكما إن الاهتمام بجسدها وصحتها أمر ضروري فالأحرى بها أن تهتم بتثقيف نفسها وبناء شخصيتها روحيا وخلقيا ووطنيا.

ومن بين كل النساء، خصص سعادة الأمهات فركز على دورهن في بناء المجتمع رافضا أن يقتصر دورهن على تربية أطفالهن جسديا وصحيا، محملا إياهن مسؤولية إعداد أجيال من المواطنين الصالحين الفاعلين في مجتمعاتهم. ولا يغيب عن بالنا بالطبع أن مسؤولية ضخمة كتلك التي يلقيها سعادة على أكتاف الأمهات لا يمكن أن تضطلع بها أمهات جاهلات متخلفات، والأهم من كل ذلك مستعبدات مسحوقات مقهورات ومسلوبات الرأي وحرية التصرف.

لهذا يعتبر سعادة أن الأطفال الذين ينشؤون في ظل الاستعباد أي في كنف أم مستعبدة، ينشؤون مذلولين أما إذا نموا في أحضان أمهات تغمرهن الثقة بالنفس ويملكن الإرادة الواعية، فإنهم، أي الأطفال، ينشؤون رجالا ونساء أحرارا كبارا كراما تكبر بهم أمتهم وبها يكبرون.

وفد رفض سعادة رفضا قاطعا أي قهر يمكن أن يقع من أي مواطن على أي مواطن آخر وخصوصا من الرجل على المرأة ابنة كانت أو أختا أو زوجة إلخ فيقول:

ونرى الأب يقهر الأم في كثير من الأمور الحسنة التي ترغب فيها ونرى الأب والأم يقهران الابنة في أعظم رغباتها شأنا في حياتها ويقرران مصيرها تقريرا يسحق عواطفها ويجردها من كل إرادة في الحياة، فتصرف بقية حياتها منكسرة القلب حزينة النفس. قولوا لي أيها السادة، هل يمكن هذه الآنسة متى أصبحت أما أن تغذي أبناءها بروح الثقة بالنفس والاعتماد على النفس وحرية الفكر وحرية التصرف وسائر الفضائل التي بدونها تكون الحياة عديمة الجدوى، عديمة الارتياح، عديمة السعادة، عديمة المعنى، اللهم إلا معنى الخمول والذل والانحطاط والعبودية؟ وهل يمكن الأطفال النامين تحت ضغط القهر وإذلال النفس أن يخرجوا رجالا ونساء أحرارا».

وهكذا نرى أن حرية المرأة تكتسب مع سعادة أبعادا جديدة، وهو الداعي إلى إطلاق نهضة جديدة في المجتمع فالمرأة برأيه يجب أن تكون حرة لأنها مواطنة وهذا حقها المقدس، ويجب أن تكون حرة حتى تربي أجيالا من الأحرار ويجب أن تكون حرة حتى تساهم في تحرير أمتها.

هذا هو الدور الذي رسمه سعادة للمرأة السورية التي سعى إلى تحريرها وصولا إلى تحرير أمته.

المرحلة الثانية

في هذه المرحلة، كانت البلاد قد تخلصت من الدب العثماني لتقع في الجب الأوروبي وفي هذه المرحلة غاب تركيزه على التحرر من العثمانيين وانصب جهده على مواجهة الانتداب الأوروبي لبلادنا. كما إن وعيه القومي تطور خلال هذه المرحلة وصولا إلى تأسيس الحزب السوري القومي كما تطور مفهوم الأمة بعد تأسيس الحزب «فأصبحت أمة حية حرة بعدما كانت قطعانا بشرية». كذلك ظهرت في هذه المرحلة الحرية الفكرية بشكل بارز ومكرر، إلى جانب حرية التجارة، حرية القول، حرية الرأي والصحافة والحرية السياسية...

أما حرية المرأة التي استحوذت على حيز كبير من اهتمامه خلال المرحلة الأولى فقد تطورت في المرحلة الثانية وتبلورت أكثر عندما أدخل المرأة في حزبه بعد أن أثبت مادة في دستور هذا الحزب تجيز لها، على قدم المساواة بالرجل، أن تدخل الحزب وتناضل وتصارع.

أما الوحدة الروحية فقد استمرت بارزة خلال هذه المرحلة أيضا إلا أنه توسع في شرح أسبابها وفي التركيز على الحرية الدينية المؤدية إلى هذه الوحدة الروحية.

ففي مستهل هذه المرحلة يطالعنا سعادة بانتقاد لاذع للمواطنين السوريين المطمئنين إلى فرنسة النائمين على حرير وعودها والمتبجحين صدقا أو خبثا بأن فرنسة ستسهر على هذا الاستقلال، إن هذا القول: «يعني أن أمر هذا الاستقلال في يد فرنسة وليس في يد الشعب في لبنان. فالشعوب التي يسهر غيرها على استقلالها هي شعوب غير مستقلة وجميع الشعوب الواقعة تحت حماية شعوب أخرى هي شعوب غير مستقلة، بل مستعبدة. وهذه الحقيقة يعرفها جميع الأحرار وكل شعب يتكلم باسمه ممثل سلطة أجنبية ويعلن مصيره هو شعب مستعبد باسم الوصاية والحماية، «والسهر على استقلاله» وبمثل هذه الشعوذة التي تحقر المدارك الإنسانية يظن ضحايا «حماية فرنسة لاستقلال لبنان» أنهم يفهمون الشؤون الحقوقية والسياسية الانترنسيونية».

ولم يكتفي سعادة بضرورة انتزاع الاستقلال من يد المستعمرين بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين رفض الاستقلال إلا إذا كان نابعا من إرادة الشعب لأن الشعب الحي هو المعبر أصدق تعبير عن أمانيه وطموحاته «إن الشعب الذي

يقبل أن تقرر له هذه الدولة أو تلك استقلاله وسيادته هو الشعب الذي يعدم استقلاله وتبطل سيادته بقبوله تقرير مصيره من قبل أية دولة أجنبية» وحين طالب سعادة بهذا الاستقلال النابع من إرادة الشعب لم يغب عن باله أن بعض «المتلبننين» سيفهمون حرية سورية واستقلالها، ظلما للبنان واستعمارا له ، لهذا طمأنهم بما لا يقبل الشك وطمأن كل الذين قد يخدعون بأقوال هذه الفئة «الانعزالية» بقوله: «أيها الشعب اللبناني! إني منك ولك وإني مستعد لحماية سيادتك من كل إرادة أجنبية تريد أن تحرمك الحرية والحق وأن تكبلك بقيود الخنوع والذل».

الاستقلال الفكري

وللتخلص من وطأة الاستعباد الأجنبي تلك، والحصول على الحرية، شدد سعادة في خطاب أول حزيران 1935 الشهير على «إبقاء الفكر السوري حرا مستقلا» غير خاضع لإرادة أجنبية معتبرا ذلك ضمانة ضرورية لتأمين الحرية والاستقلال التام. فلا فائدة من المطالبة بالاستقلال السياسي إذا كان الفكر خاضعا لإرادات أجنبية. وقد أعلن بكل وضوح في الخطاب عينه: «متى خضع الفكر القومي لفكر أجنبي فماذا يبقى من الاستقلال؟ وإذا خضع النظر إلى قيم الحياة إلى نظر أجنبي فماذا يبقى من الاستقلال».

وللتدليل على أهمية إبقاء الفكر السوري حرا، أشار سعادة إلى أن سورية بحاجة ماسة إلى شبكة من العلاقات والصداقات مع الدول الأجنبية فلا يمكنها أن تحيا معزولة عن العالم الخارجي وأبدى استعداده الحازم للاعتراف بضرورة إنشاء هذه العلاقات وبأهميتها إلا أنه وضع لهذه العلاقات شرطا واحدا وهو أن لا تؤثر على حرية الفكر السوري: «إننا نعترف بأن هنالك مصالح تدعو إلى إنشاء علاقات ودية بين سورية والدول الأجنبية وخصوصا الأوروبية ولكننا لا نعترف بمبدأ الدعاوات الأجنبية.

يجب أن يبقى الفكر السوري حرا مستقلا أما المصالح المتبادلة فنحن مستعدون للاعتراف بها ولمصافحة الأيدي التي تمتد إلينا بنية حسنة في موقف التفاهم والاتفاق [...] موقفنا من الوضع الأنترنسيوني لا يزال مؤسسا على هذه القاعدة وهي تعني أننا نعمل لتحرير أمتنا من كل سيادة أجنبية وتحرير الفكر السوري من تأثيرات الإرادات والمناورات الخارجية» فالاستعمار الأجنبي سرعان ما يتناول الشعب من أفكاره، لأن مستعمرينا اعتادوا في كل مرة يثبتون أقدامهم في بلادنا، أن يبدأوا ببث أفكار خبيثة ومشوهة كما دأبوا على طمس العديد من حقائقنا وعلى إهمال كبار مفكرينا وإبراز حضارتهم هم، ومفكريهم هم، ونفخ وإظهار المأجورين من أبناء شعبنا الذين يسيرون في ركابهم ويتخذون من مصادقتهم وسيلة كسب رخيصة. ولأن الخضوع لإرادة أجنبية سيوصلنا إلى ما أسلفنا ذكره، فقد رفضه سعادة بإصرار واعتبر أنها حالة لا تطيقها «نفوسنا الحرة الأبية».

وقد جعل سعادة الاستقلال الفكري سابقا للاستقلال السياسي بل ممهدا له ودافعا إليه. واعتبر النهضة القومية التي أنشأها «انتصارا عظيما على الميعان النفسي من فوضى التفكير الأدبي» كما اعتبرها دافعا لقوى الأمة السورية الروحية حتى «تنطلق من قيودها وتتحرر من تسلط الثقافات الأجنبية وعوامل الشلل الروحية الأدبية».

وللحصول على الاستقلال الفكري والسياسي حث سعادة جميع السوريين مغتربين ومقيمين على بذل ما بوسعهم حتى الدماء، قائلا لهم: «إن الحرية مثل الثروة لا يجوز لاحد أن يفتخر بها إلا إذا جناها بعرق جبينه» لذلك وجب على الإنسان أن يكافح بجهد من أجل الحصول عليها ولا ينتظر أن تأتيه عفوا لأن «كل حرية من هذا النوع لا تجلب للإنسان سوى الألم والحزن».

الحرية الأدبية

أما الأدب وهو من أبرز مظاهر الفكر عند سعادة، فقد رفض اعتباره مرآة للمجتمع فحسب، ولكنه طالب بتحريره وبتوجيهه نحو خدمة قضية الحرية ودعا الأدباء إلى تناول قضايا الفكر والشعور الكبرى كقضية الفرد وقضية الحرية وقضية الواجب وقضية النظام وقضية القوة وقضية الحق وغيرها، ولم يرفض سعادة الأخذ عن أدب الغرب وغير الغرب ولكنه اشترط أن نأخذ من هذه الآداب العالمية فقط ما يتلاءم وبيئتنا وحياتنا وأن نرفض ما لا يناسبنا، ودعا إلى غربلة هذا الأدب بتأن وحكمة حتى يتمكن أدباؤنا من الإفادة منه وبالتالي إفادة مجتمعهم.

وعندما يدعو سعادة إلى الاطلاع على الفكر العالمي وعندما يدعو الحكومة إلى إطلاق حرية الفكر ورفع القيود عن الأفكار والمفكرين فإنه لا يعني مطلق الحرية الفردية الأنانية إنما يطلب حرية من نوع آخر هي حرية ذات عناصر جديدة، حرية مقرونة بالواجب والنظام والقوة مفصلة ضمن المجتمع وضمن مبادئ الحركة السورية

القومية الاجتماعية فالحرية حسب رأيه «كانت تفهم قبل النظرة الجديدة إلى الحياة في أشكال واعتقادات لا وضوح فيها ولا صلاح لها في النظرة الجديدة. فلما جاءت النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن التي نشأت بسببها الحركة السورية القومية الاجتماعية وقرنت الحرية بالواجب والنظام والقوة وفصلت الحرية ضمن المجتمع وتجاه المجتمعات الأخرى هذا التفصيل الواضح، والظاهر في تعاليمها، نشأت قضية جديدة للحرية ذات عناصر جديدة بينها فهم جديد يتناول أشكال الحرية كما تراها النهضة القومية الاجتماعية فصل الحرية وشأنها ضمن هذه الأشكال».

وبهذا المفهوم الجديد للأدب وللحرية الأدبية ولحرية الاطلاع على الأدب العالمي والاقتباس منه يكون سعادة قد أعطى مفاهيم جديدة للأدب ودوره، لم يسبقه إليها سواه، ثم دعا شعراء سورية وأدباءها إلى إنشاء أدب يليق بالحياة لكي يستحق التقدير والخلود كما دعاهم إلى ممارسة الحرية بمعناها الجديد ليس لأنها شعار حزبه بل لأنها تجسد فكرنا وشعورنا بالحياة فقال لهم: « تعالوا نرفع، لهذه الأمة التي تتخبط في الظلمات، مشعالا فيه نور حقيقتنا وأمل إرادتنا وصحية حياتنا [.....] تعالوا نأخذ بنظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن، وبفهم جديد للوجود وقضاياه، نجد فيهما حقيقة نفسيتنا ومطامحنا ومثلنا العليا. تعالوا إلى الحرية والواجب والنظام والقوة ليس لأنها شعار حزب سياسي اجتماعي، بل لأنها رمز فكرنا وشعورنا في الحياة ولذلك صارت شعار حركة البعث القومي، التي وضعنا فيها كل رجائنا وكل قوتنا وكل إرادتنا، تعالوا نفهم أنفسنا على ضوء نظرتنا الأصلية إلى الحياة والكون والفن، بهذه الطريقة نوجد أدبا حيا جديرا بتقدير العالم بالخلود».

وربما كانت هذه الدعوات تعالوا نرفع... تعالوا نأخذ... تعالوا إلى الحرية...) دعوات لولوج المواطنين إلى حزبه الذي رأى النور كما سبق وذكرنا في 16 ت2 1932 والانضمام إلى صفوفه إلا أنها وفي الوقت ذاته دعوة حميمة صادقة إلى أدباء أمته لكي يغيروا مسارهم ويشرعوا في كشف حقيقة أمتهم وإضاءة حضارتها والنحو نحوا جديدا في الحياة والكون والفن، والتخلي عن التخبط في قضايا أدبية شخصية سخيفة بعيدة كل البعد عن الإنتاج الأدبي الصادق الخالد المعبر عن حقيقة الشعب وحضارته وتوقه لنيل حريته.

حرية المرأة

تابع سعادة خلال هذه المرحلة أيضا مسألة تحرير المرأة التي كان قد بدأها خلال المرحلة الأولى من حياته السياسية الفكرية فاعتبر أن للمرأة أهمية كبرى في بناء المجتمع الحر، ثم ضمن دستور حزبه مادة تقول: «إن كل سوري ذكرا كان أم أنثى يحق له دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي بشروط معينة» فصلها في دستور حزبه وبهذا، يكون سعادة قد أعطى المرأة حريتها الاجتماعية والسياسية وأفسح لها مجال ممارسة هاتين الحريتين والتمتع بهما ، شأنها في ذلك شأن الرجل، فهما برأيه مواطنان سوريان متساويان في الحقوق والواجبات لا يختلف أحدهما عن الآخر لا بقدراته العقلية ولا الجسدية ، ولا ضرورة البتة لأن يكون أحدهما حرا والثاني عبدا فالحر يربي أجيالا من الأحرار والعبد يربي أجيالا من العبيد.

الوحدة الروحية

الوحدة الروحية رافقت سعادة خلال هذه المرحلة أيضا. فقد شدد عليها واعتبرها ضرورية للحصول على الاستقلال: «حتى بعد إعلان استقلال لبنان لا تزال هنالك نزعتان تنازعان السيادة ومصير لبنان اللاقومي هما: النزعة المسيحية اللبنانية الفينيقية والنزعة المحمدية العربية وفي هذا الانقسام السياسي لا أساس حقيقيا للاستقلال اللبناني».

وقد يتساءل البعض قائلين ألا يناقض سعادة نفسه حين يدعو إلى استقلال سورية، سورية المحمدية والمسيحية معا في حين أنه يركز على أن الانقسام الديني لا يشكل أساسا حقيقيا للاستقلال؟

والصحيح أن سعادة لا يناقض نفسه أبدا لأنه يعتبر بلا أدنى شك أن المسيحية والمحمدية رسالتان سماويتان في دين واحد هو الإسلام، طالما أن سورية تدين كلها بالإسلام برسالتيه فهي ليست بالتالي منقسمة دينيا. ولم يرسل سعادة كلامه على عواهنه إنما أثبته ببحث طويل نقب خلاله في الإنجيل والقرآن والتوراة فقارن وعلل واستنتج أن المسيحية والمحمدية رسالتان متطابقتان في الأمور الجوهرية: خلود النفس، الثواب والعقاب والحشر والدعوة إلى المحبة... ولا تختلفان إلا بأمور شكلية وطقوس وفرائض أملتها ظروف وبيئة كل من الرسالتين. ولقد جمعت هذه المحاضرات في كتاب سمي «الإسلام في رسالتيه: المسيحية والمحمدية».

الحرية الدينية

ولأن الدين يختص بالأفراد، وقيمه، قيم الخير والحق والجمال والعدل والحرية، هي دعوة من خالق العقل، الله، لاستيحائها بما فيها خير الناس وتهذيب نفوسهم وترقية حياتهم لذلك لم يعارض سعادة الحرية الفردية الدينية قائلا: «فليؤمن من يشاء بما يشاء» لأنه لا يريد أن يفرض إيمانا معينا بأية فكرة أو عقيدة أو دين على أحد، فالإنسان يمتحن في قوميته لا في دينه. إن موقف سعادة هو موقف احترام حرية المعتقد، فالحرية عنده قيمة عليا لا يجوز أن تمس، وهو كصاحب دعوة إلى المذهب القومي الاجتماعي وكزعيم الحزب عقائدي، يرفض بأية حال أن يملي على المؤمنين بهذه الدعوة قناعته الدينية الشخصية فلم يفرض الإيمان بأي مذهب كما لم يطلب من القوميين عدم الإيمان وهو موقف الحياد الإيجابي تجاه العقائد الدينية والإيمان الغيبي، يقول سعادة: «ضمن لجميع أفراد المتحد وأعضاء الدولة القومية الاجتماعية حرية الاعتقاد الخارج عن حد العقيدة القومية الاجتماعية وحرية الضمير والجهر بالمعتقدات بشرط المحافظة على وحدة الأمة والدولة وعلى النظام الاجتماعي لممارسة طقوس المعتقدات المتعلقة بما وراء المادة بشرط أن تلزم هذه الأعمال حدودها الغيبية ولا يكون غبار على ما لا يتعدى تلك الحدود إلى ما هو من شؤون الدولة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحقوقية والقضائية وإلى القول بحرمان أعضاء الدولة وأفراد المجتمع الذين هم من معتقد مخالف من حقوقهم المدنية والسياسية إلى محاولة فرض أشكال سياسية خصوصية للدولة وشروط خصوصية لنظامها السياسي». وقد دعا سعادة إلى محبة الآخرين واحترامهم رغم الاختلافات الدينية مشددا على أن حب الآخرين ليس انتقاصا من إيماننا أو من حبنا لطائفتنا ومصالحها، فيقول: «ليس من ضروريات الإيمان مثلا أن يعتقد الأرثوذكسي أن الكاثوليكي هرطوقي ولا من ضروريات الدين أن يعد السني العلوي كافرا أو بالعكس».

نستنتج مما سلف أن سعادة أمن بالحرية الدينية ودعا إليها مشترطا ألا تستعمل هذه الحرية لإثارة الفتن والنعرات الطائفية وبث الأحقاد ونفث السموم، ويقول في هذا الصدد: «حرية الرأي والاعتقاد مبدأ عام لا يمكن حرمان أحد منه إلا الذي يستخدمه لإفساد الأخلاق وإلقاء الشقاق وإثارة العداوات بين مختلف أبناء الأمة السورية».

مجالات أخرى للحرية

وفي هذه المرحلة أيضا توسع مفهوم الحرية عنده فشمل حرية التجارة، حرية القول وإبداء الرأي والصحافة وحرية اختيار الأحزاب والأديان وفي هذا السياق وتطبيقا لافكاره التي تقضي باقتران القول بالفعل اعترض على احتجاز الأديبة مي زيادة في مصح عقلي ثم دبر عملية إطلاقها وحررها. ولا غرو في ذلك فقد كان سعادة يعتبر ماري زيادة أو مي أعظم أديبة أنجبتها سورية في العصر الحديث.

وسنعمد فيما يلي إلى الإضاءة ما أمكننا على كل شكل من أشكال الحرية هذه، على حدة:

حرية التجارة والعمل

لقد أولى سعادة حرية التجارة والعمل اهتماما بارزا وذلك على الرغم من كثرة انشغالاته وظروفه القاهرة، إلا أن ما تركه لنا في هذا الموضوع ينير زاوية كانت مظلمة قبل أن يتطرق إليها ويدلي برأيه فيها. فالتجارة عند سعادة يجب أن تكون حرة ضمن حدود البلاد السورية ويطالب بتبادل المحصولات الزراعية والمنتوجات الصناعية بين مناطق الأمة جمعاء «فيأخذ أهل الداخل ما يحتاجونه من منتوجات الساحل ويحصل النفع المتبادل لأهل المنطقتين فتزداد العلاقات السياسية توثيقا».

ويرفض سعادة بشكل قاطع كل العراقيل التي تمنع التجارة داخل الأمة من السير في مجراها الطبيعي معتبرا هذه العراقيل سدا بوجه الفلاح الاقتصادي لجميع كيانات الأمة على السواء، ويتهم الأنظمة المتبعة في كل كيان من كيانات الأمة بارتكاب خطيئة قومية إن هي لجأت إلى التضييق على حرية التجارة بين هذه الكيانات، محملا إياها كل ضرر قد ينتج على الشعب من جراء هذا التضييق.

وفي هذا الإطار يشن سعادة حملة مركزة على «سياسيي الانفصال» من حكومتي لبنان والشام الذين كانوا يسعون للقضاء على المصالح المشتركة بين الكيانين والفصل الاقتصادي التام بينهما ويعتبر أن هذا الانفصال «سيوجد تضاربا في السياسة الاقتصادية بين الحكومتين اللبنانية والشامية غير محمود العاقبة» ويتنبأ بحصول تضارب في السياسة الاقتصادية بين الحكومتين قريبا. وقد حدث هذا بالفعل وحدثت القطيعة الشهيرة عام 1950

وانتهجت حكومة لبنان النظام الاقتصادي الحر وانتهجت حكومة الشام النظام الاشتراكي الموجه. فلنسمعه يقول بما يشبه النبوءة:

«وتدل قرائن الأحوال على أن الحكومتين قد تندفعان في فرصة قريبة، في حرب اقتصادية جمركية، يقلق لها تجار لبنان وزراع الداخل قلقا مشتركا، لأن كلتا الحكومتين تبنيان نظريتهما على موارد الحكومة لا على موارد الشعب، على مقدار الدخل إلى الخزينة لا على مقدار الدخل على الثروة العامة. والقلق من سياسة مبنية على هذه القواعد قلق في محله».

المرفأ الحر

ومن هذا المنطلق أيضا عالج سعادة مسألة المرفأ الحر الذي كانت حكومة لبنان في صدد إنشائه ردا على المكوس المفروضة على الصادرات من لبنان إلى الداخل. واعتبر الهروب من عقبة المكوس إلى إنشاء مرفأ حر واعتماد مبدأ حرية التجارة في لبنان، أمرا يجب التفكير فيه مليا إن من حيث النتائج المتوقعة له أو من حيث انعكاسه على الحواجز الجمركية بين لبنان والشام ولم يخف سروره بوجود أي سلاح ماض يحطم هذه الحواجز الجمركية. هذا من حيث المبدأ ولكن لمصلحة من يكون هذا السلاح؟» يتساءل سعادة ويتابع مجيبا: «إن إيجاد مرفأ حر يعني إنشاء مستودعات ضخمة في هذا المرفأ تستوعب من البضائع ما يتكفل بتموين أسواق الشام والعراق وإيران.

[....] وليس لبنان مجهزا بالرساميل الضخمة التي تقتضيها مشاريع المرفأ الحر، ولا بالخبراء الماليين والاقتصاديين الذين يتمكنون من تأمين نجاحها. فالنتيجة تكون أن رساميل أجنبية متحفزة تثب على المرفأ الحر حالما يتقرر إيجاده وتنشب مخالبها فيه.

[....] والمرجح أن الرساميل الأجنبية التي ستسبق غيرها إلى القبض على تجارة المرفأ الحر ستكون يهودية. فيقبض اليهود على تجارة الشاطئ السوري كله ولهذه الوجهة خطرها السياسي القومي».

فمن هذا المنطق رفض سعادة مسألة معالجة الحواجز الجمركية بطريقة المرفأ الحر التي كانت تسعى إلى إنشائه حكومة لبنان. ولو لم يكن موقنا من هذا الرأي، ولو لم يكن مدركا أن كل الحيثيات ستؤدي إلى هذا الأمر لما رفض مسألة المرفأ الحر لا بل بالعكس لكان دعمه وسانده للقضاء على الحواجز الجمركية المعرقلة لحرية التجارة داخل الأمة.

حرية الأمة في التجارة والعمل

وكما طالب سعادة بإطلاق حرية التجارة بين مختلف مناطق الأمة الداخلية منها والساحلية، فقد طالب كذلك بتأمين الحرية للأمة وذلك عن طريق إفساح المجال أمامها للتعاقد بحرية مع من تشاء وبالموضوع الذي تشاء وحسبما تقتضيه مصلحتها القومية لا مصالح بعض الأفراد والمنتفعين. وقد حذر مؤسسة الجامعة العربية من محاولة المساس بحرية التعاقد لكل أمة من أمم العالم العربي معتبرا عملها هذا غير مؤد إلى الغاية التي أنشئت من أجلها.

الحرية السياسية

لقد آمن سعادة بالحرية السياسية أيضا واعتبرها من حيث أهميتها صنوا للحرية الدينية لا بل تفوقها أهمية في بعض الأحيان، فكما أن الإنسان حرفي اعتناق المذهب الديني الذي يراه مناسبا، كما سبق وذكرنا، فإنه أيضا وبالمكان ذاته حر في اختيار الحزب الذي يراه مناسبا وحر في اعتناق المبادئ والأفكار السياسية والاجتماعية التي يراها مناسبة. ولقد أوضح سعادة هذه الفكرة بقوله: «إن لجميع أبناء أمتي كل الحرية في ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية والاشتراك في الأحزاب التي يعتنقون مبادئها وإننا لا نرى سببا لمنعهم من الدخول في حزبنا الذي هو حزب الشعب كله».

وهكذا نخلص مع سعادة إلى التساؤل عن سبب منع الحكومة المواطنين من دخول الأحزاب وبالتالي منعهم من دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي. ويستنكر سعادة تصرفات الحكومة هذه ويتهمها بتضحية مصالح الشعب وإرادته على مذبح إرادتها الخصوصية لأنها برأيه تحرم الشعب من حريته بلا مبرر وتحد من الحريات السياسية أيضا بلا مبرر ويأسف لأن يستلم السلطة الحكومية أصحاب مصالح خصوصية لأن هذه الفئة من الناس لم تر يوما أبعد من مصالحها ولن ترى. ويعتبر الدولة التي تمنع سلطاتها إنشاء الأحزاب أو تحد من حرية الأحزاب الناشئة،

«دولة لا قيمة تمثيلية لمجالسها النيابية» لأنها تكون إذ ذاك قائمة على التزوير والرشوة وإيصال المحاسيب والأزلام وإبعاد ذوي الأفكار التقدمية الحرة عن الندوة البرلمانية.

وأخيرا نستنتج أن سعادة قد طالب بالحرية السياسية لأمرين هامين جدا. أولا لأن الحرية هي من صميم مبادئ حزبه وهي تحتل أحد أطراف الزوبعة، شعار حزبه، وتحتل الحيز الأكبر من كتاباته حيث نراه يفرد لها الصفحات شارحا مفسرا محذرا من محاولة الحد منها، ومحذرا في الوقت ذاته من محاولة ممارستها بشكل أناني فوضوي مطلق، مطالبا بتأمينها للمجتمع بأكمله وبممارستها لمصلحة المجتمع بأكمله، رافضا ممارستها إلا لمصلحة المجتمع. ثانيا لأن كبت حرية المواطنين ومصادرتها وقولبتها في قوالب من صنع الإقطاعيين وذوي المصالح الخصوصية، يبعد المواطنين عن التعرف إلى الفكر القومي الاجتماعي الصحيح أو يوصله إليهم مشوها مقتطعا ويؤلبهم عليه ويحذرهم من الاقتراب منه ويتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هم حاولوا ملامسة هذا الفكر القومي الحر من قريب أو بعيد.

حرية إبداء الرأي والقول

وإلى جانب مطالبته بتحرير الفكر والمحافظة على إبقائه حرا، وإلى جانب مطالبته بالحرية التجارية والسياسية طالب سعادة أيضا بحرية الرأي والقول مؤكدا بأن «حرية الرأي وحرية القول هما حريتان أساسيتان وكل حكومة تلجأ إلى خنقهما تنافي في عملها المبادئ الديمقراطية». لذلك أصر على طلب هاتين الحريتين محاربا كل من يقف حجر عثرة بوجه الحصول عليهما. وقد قال في هذا الصدد: «فضلنا أن نبقى محاربين الحكومة من أجل مبدأ عام هو مبدأ حق المواطن في التعبير عن رأيه بحرية» مضيفا بأنه رغم رحيل الاحتلال الفرنسي فإن هذه الحكومة مازالت تتخذ مقررات تعسفية في حق المواطن مدعية بأنه يستعمل «تعليلات مبهمة» في كلامه وبعدما تختلق الأعذار التي لا تقنع أحدا تلجأ إلى كبت حرية القول. وفي ظل هذا الكبت لا مجال أبدا للتقدم والتطور. «وكل ميثاق يرمي إلى منع اللبنانيين من حرية الرأي والتطور هو ميثاق خارج عن إرادة اللبنانيين».

أما الصحافة التي استأثرت بحصة لا بأس بها من اهتمام سعادة، الكاتب الصحفي والمفكر فقد كان موقفه، من ضرورة تمتعها بالحرية الكاملة، موقفا شديدا وصارما فهو يقول: «نحن أحرار في أن نقول رأينا في الشؤون الخارجية وأن ننير شعبنا بجميع المعلومات المفيدة، لأن التعتيم على ما تصنعه أيدي الاستعمار المتواطئة مع الحكومات الرجعية، يجعل القضية القومية في خطر الاندحار والزوال ويعزل الشعب عن قضية القومية». ورفض سعادة رفضا قاطعا أن يتم إلقاء القبض على أي صحافي بسبب رأيه لأن حجز حرية الصحافيين يعتبر عملا استبداديا وضغطا على حرية الفكر وكبتا مستمرا للحرية: «إن الأسباب التي دعت الحكومة إلى اتخاذ تدابيرها ضد الصحافيين القوميين الاجتماعيين هي أسباب أظهر الدفاع في المحكمة أنها استبدادية فاسدة وهي استمرار كبت الحرية واستمرار معاملة كل منتقد لسياسة بعض الحكام بتسليط نقمة القضاء عليه».

المرحلة الثالثة والأخيرة

هذه المرحلة تغطي الأشهر الثمانية والعشرين الأخيرة من حياته والتي قضاها في الوطن بعد عودته من مغتربه القسري الذي دام تسع سنوات.

هذه المرحلة كانت مرحلة مميزة في حياة سعادة لأنها كانت غنية بالكتابة والتنظيم والعمل على الرغم من قصرها. إن ما يعنينا من هذه المرحلة هو كيفية معالجته للحرية بشكل عام، هل استمر في آرائه السابقة؟ هل عدلها؟ هل غير فيها؟ هل أضاف إليها؟ أو حذف منها؟ كل هذه الأمور سنلقي عليها الضوء خلال هذه المرحلة الأخيرة من حياته.

فلبلوغ حرية الأمة مثلا، ظل سعادة يعتبر مسألة الوحدة الروحية أساسية وجوهرية، ومثلها الحرية الفكرية وحرية الرأي والقول أي حرية الصحافة وحرية العمل.

كلها انتقلت معه من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته وقد اعتمد على كل هذه الحريات للوصول إلى هدفه الرئيسي وهو حرية الأمة.

أما حرية المرأة فلم يتطرق إليها خلال هذه المرحلة ليس لأنها لم تعد بذات أهمية بالنسبة إليه، بل لأنه اعتبر أنه قد قال رأيه فيها وأنه قد حل مشكلتها ضمن حزبه أو كاد، فباتت لا تشكل حجر عثرة في سبيل تحرير الأمة.

فيما يلي سنختصر أهم آرائه في كل من هذه المواضيع خلال هذه المرحلة.

الوحدة الروحية

في هذه المرحلة ظلت الوحدة الروحية حية وحاضرة في فكر سعادة وظل يعتبرها ضرورية «لكل أمة تريد أن تحيا حياة حرة مستقلة تبلغ فيها مثلها العليا». وقد رفض سعادة مسألة الروحيات الدينية المتعددة وشدد بالعكس على روحية واحدة تؤدي إلى نظرة واحدة إلى الحياة والكون والفن تعتمد مقاييس واحدة ومفاهيم واحدة.

وقد هاجم سعادة بعض التقاليد العفنة التي تمارسها الطوائف واعتبر أنها تقف سدا منيعا في وجه التقدم والتطور وتؤخر النهضة القومية الاجتماعية عن توحيد الشعب وتحريره واستقلاله وبلوغه مثله العليا: «إن في أمتنا تقاليد متنافرة مستمدة من أنظمة مؤسساتنا الدينية والمذهبية، كان لها أكبر تأثير في إضعاف وحدة الشعب الاجتماعية والاقتصادية وتأخير نهضتنا القومية الاجتماعية. ما دامت هذه الحواجز التقليدية قائمة تذهب دعواتنا إلى الحرية والاستقلال صيحات ألم وتأوهات عجز».

وبما أن الطائفيين لا يكتفون ببث الأحقاد والنعرات الطائفية والمذهبية، وبما أنهم يحشرون أنف الدين في كل الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مسخرينه لخدمة مآربهم الشخصية، فقد دعا سعادة في مبادئه الإصلاحية إلى فصل الدين عن الدولة ومنع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين». معتبرا هذا الفصل والمنع تنزيها للدين ولرجال الدين ورفعا لسويتهم الأخلاقية وحصنا واقيا لهم حتى لا يغرقوا في الوحول الأسنة.

ولم يعتبر سعادة البتة، فصل الدين عن الدولة ومنع رجال الدين من التدخل في السياسة والقضاء القوميين، تقييدا لحرية رجال الدين لأنه لا يؤمن بحرية فردية أنانية متعارضة مع مصلحة المجتمع كما لا يؤمن بحرية فوضوية متفلتة، مطلقة، إنما يرتكز إيمانه على المجتمع وحرية الصراع من أجل التقدم نحو الأفضل داخل المجتمع: «وبفصل الدين عن الدولة نجد القاعدة التي تجعل الإنسان حرا في معتقده الديني، لكنه يخضع للشرائع التي أنتجتها عقول إنسانية وهبها الله لا ليعطلها بل لتخدم المجتمع الإنساني».

ولا ينكر سعادة هنا أن قضيته القومية، وتعاليم حزبه قد أتت دينا جديدا واحدا موحدا ليرفع هذه الأمة إلى الخلود. وقد رأينا أن نثبت كلامه حول ضرورة فصل الدين عن الدولة في هذه المرحلة الأخيرة من حياته، على الرغم من أنه من المبادئ الإصلاحية التي وضعها سعادة عند إنشائه الحزب عام 1932 ذلك لأن الزعيم قد عاد فشرح هذه المبادئ كلها في عشر محاضرات خصصت لها ومن ضمنها مبدأ فصل الدين عن الدولة، وهذا يدل على أن سعادة ظل يعتبر هذا المبدأ ضروريا لنيل الأمة حريتها حتى آخر يوم من حياته.

وقد أعطى سعادة العقل البشري دوره الأقصى، كموهبة عليا للإنسان، يجب ألا يعطله شيء مهما كان، حتى الشرع الديني ليس «الشرع الأعلى» بنظر سعادة بل العقل في الإنسان هو نفسه «الشرع الأعلى والشرع الأساسي»، العقل هو القوة المميزة المدركة الحرة، وهو لذلك يجب أن يفعل ويميز ويدرك ويختار وكل قاعدة توضع لتبطل العقل أي تبطل التمييز والإدراك تقضي على ميزة الإنسان الأساسية، فيبطل أن يكون الإنسان إنسانا حرا بل يصبح كالعجماوات بلا وعي ولا عقل «أما الإنسان فالله قد أعطاه القوة المميزة المدركة لينظر في شؤونه ويكيفها لما يفيد مصالحه ومقاصده الكبرى في الحياة. فليس معقولا إذا أن يعطل الله هذه القوة بتشريع أزلي جامد لذلك كان العقل الإنساني، كان الإنسان، كان المجتمع الإنساني حرا بإرادة الله، بإرادة المصدر الذي ينشأ عنه لكي يسير بقوة تميزه، وإدراكه نحو ما هو المصير الأفضل ليقرر من ذاته وبذاته ما هو المصير الأفضل في حياته. والدين نفسه إذ يجعل قاعدة الحساب، يوم الحشر أو يوم الدينونة هو نفسه يقر هذا المبدأ، مبدأ أن يختار الإنسان بملء حريته اتجاهه والمصير الذي يريده لنفسه».

الحرية الفكرية

«الحقيقة والمعرفة الصحيحة تظهران بالبحث الحر، لا باضطهاد حرية الفكر».

بهذا الإعلان أثبت سعادة أن حرية الفكر يجب أن تبقى مصانة وبعيدة عن الاضطهاد حتى يبقى الفكر السوري حرا وحتى تبقى الحقيقة ساطعة والمعرفة مشعة والجباه مرفوعة وفي هذا الإطار أعاد شرح خطاب الأول من حزيران 1935 الذي يحتوي، من ضمن ما يحتوي، تشديدا ظاهرا على صيانة الحرية الفكرية وعلى «إبقاء الفكر السوري حرا مستقلا».

الحرية الصحافية

في هذه المرحلة أيضا يتابع سعادة اهتمامه بحرية الصحافة ويرفض احتجاز الصحافيين أو تغريمهم أو الحكم عليهم بسبب مقالات كتبوها، كما يرفض تعطيل الصحف أو منعها عن الصدور. ولكنه وفي الوقت ذاته انتقد بعض الصحف التي كانت تفرح كلما اضطهد القوميون وكانت تهلل وتزغرد كلما تعطلت جريدة القوميين وكانت تؤيد ذلك التعطيل بقوة.

انتقد هذه الصحف لأنه عندما حان دورها بالتعطيل راحت تبكي نائحة، ناعية حرية الصحافة، ناسية نفسها يوم كانت تفرح لتعطيل زميلاتها الصحف، بقرار تعسفي من السلطات الأجنبية آنذاك.

ولم يتوان سعادة عن المطالبة بتحطيم الأقلام التي عملت طوال حياتها على تحطيم الحرية». ويضيف «إن مأساة الحرية ليست المحاكم ولا السجون! إنها أقلام العبودية في معارك الحرية».

وفي مكان آخر يقلل سعادة من أهمية كبت الجماهير وتعطيل الاجتماعات ومنع الصحف من الظهور ومصادرة الكتب والجرائد والنشرات... لأنه يؤمن «أن الشعب الحي المستفيق يتغلب على كل هذه الأمور الصبيانية التي لا يستند إليها إلا كل جاهل أو دجال أو ممخرق» ويضيف ما كان تعطيل صحيفة في العالم ولا مصادرة كتاب ولا تمزيق نشرات من أن يمنع شعبا حرا من أن يصل إلى غاياته العظمى».

ويعطي سعادة دليلا على رأيه هذا، الاعتقالات التي تعرض لها القوميون مرارا والعذابات التي لاقوها في المعتقلات والمحاكم والملاحقات والاضطهادات... ويعتبر أن كل هذا لم يمنع القوميين من النمو باضطراد ومن الاستمرار بنشاطاتهم مهما كلفهم الأمر.

حرية العمل والعمال

في المرحلة السابقة اهتم سعادة بحرية الأمة في التجارة الداخلية والخارجية وانتقد العاملين على عرقلتها، إلا أنه في هذه المرحلة يركز على العمال الذين يعتبرهم العمود الفقري للأمة ويلقبهم ب «منتجي ثروات الأمة وبنائي مجدها» فيحضهم على العمل باستمرار وعلى الجهاد والتفاني في سبيل إنتاج أفضل يرفع المستوى الاقتصادي والفكري لأمتهم. ويحذرهم من الوقوع فريسة «الإقطاعيين» «الرأسماليين» و«الشيوعيين المشعوذين» الذين يجرونهم إلى حرب ليست حربهم ويقول لهم إن حقوقهم ليست منة من إقطاعي أو رأسمالي، إنها استحقاق لهم بعملهم وحربهم، ثم يلفت سعادة نظر العمال إلى ضرورة نبذ الشعوذة والتدجيل عنهم وإلى ضرورة أن يطرحوا عنهم الرأسماليين المتاجرين بأتعابهم والذين يترأسون جمعياتهم ونقاباتهم.

أما عن الآلة التي شاع استخدامها في القرن الماضي وأدى إلى طرح عدد كبير من العمال خارج أعمالهم أو إلى استعبادهم وتشغيلهم بأجور زهيدة، فيقول سعادة إن الآلة نعمة لنا وليست نقمة وإننا نرفض أن تستعبد الآلة عمالنا، ويضيف: إننا نتجه نحو الآلة وسنستعملها بشكل مكثف أما العمال الذين ستحل الآلة مكانهم فإن نهضتنا ستصرفهم إلى عمل آخر يفيدون منه ويستفيدون، كما يحق لهم أن يحصلوا على نصيبهم من إنتاج الآلة لأنه إنتاج وطني عام.

ولأنه كان يملك أدلة عن تورط عدد من المسؤولين السوريين في صفقات واتفاقات مع قادة العدو، ولأن إسرائيل والدول الأجنبية الداعمة لها اعتبرته الخطر الحقيقي عليها، بسبب رفضه السير في اتفاقية سايكس – بيكو والخضوع للتقسيم الكياني، ولأنه أصر على اعتبار اليهود أعداء لسورية في ما كان أقصى المسموح به هو استعداء الصهيونية فقط دون المس باليهودية «لاعتبارها دينا سماويا». ولأسباب أخرى كثيرة وبضغط مباشر من إسرائيل على رئيس الكيان الشامي آنذاك المشير حسني الزعيم بواسطة المسؤول الإسرائيلي موشي شاريت الذي زار دمشق وزار الجبهة في الجولان متنكرا بزي ضابط سوري، تم تسليم سعادة إلى جلاديه في لبنان على يد حسني الزعيم نفسه. وقد روى الأب إيليا برباري، الكاهن الذي عرف سعادة حين اعتقلوه، أنه في آخر لحظة من حياته وقبل أن يساق إلى عمود الإعدام، أسف سعادة لأن الدولة اللبنانية الفتية العزيزة على قلبه لم تعرف معنى الاستقلال وتصرفت كما لو أنها ما تزال في العصور المظلمة لا في القرن العشرين، قرن الحرية والاستقلال، فقبضت عليه وحاكمته سوريا وأصدرت حكم الإعدام وصدقته ونفذته خلال فترة قصيرة جدا دون أن تتيح له حق الدفاع عن النفس الذي هو حق مشروع لأي متهم بجرم، فضلا عن الأبرياء.

لم يخش الموت ولم يجزع منه بقدر خشيته من تلوث سمعة لبنان وحكومته أمام شعوب العالم ودوله: «هكذا كان تسليمي إلى الحكومة اللبنانية العزيزة فصدقت بي الآية المسيحية: «مثل خروف سيق إلى الذبح» وتقول الآية «إتق شر من أحسنت إليه» وإذا كان قد جاز هذا العمل في العصور المظلمة فكيف يجوز اليوم في عصر النور في القرن العشرين، في عهد استقلالنا الحديث وفي هذا الدور الذي يجتازه لبناننا العزيز دور التجربة الذي يجب علينا أن نبرهن خلاله عن أهليتنا للحرية والاستقلال، فماذا يقول الأجانب عن دولتنا الفتية وبماذا يجيب المغتربون عن هذه المسألة. أه يا حسني الزعيم لقد صدق الشاعر العربي بقوله:

إحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وهكذا قضى سعادة شهيدا للحرية التي آمن بها ودافع عنها حتى آخر لحظة من حياته.